مفهوم الأنثروبولوجيا وميادينها:

تمهيد:

تعتبر الأنثروبولوجيا من العلوم الاجتماعية التي تشكلت نتيجة حاجة الإنسان إلى معرفة ذاته وعلاقته بالطبيعة ووظيفته في المجتمع، وهي بذلك لا تختلف أساسا عن الفلسفة من حيث طرحها لهذه التساؤلات الكبيرة التي لاحقت الإنسان منذ وجوده في هذا الكون الفسيح.

ولكن إذا كانت الأنثروبولوجيا تشترك مع الفلسفة وعلم الاجتماع و علم النفس و الاقتصاد و علم التاريخ و علم الآثار ... في دراسة الإنسان الذي تتقاطع حوله هذه العلوم فإنها تنفرد بخاصية يقرها كثير من الأنثروبولوجيين باختلاف مناهجهم ومدارسهم وتقنياتهم في البحث وهي أن الأنثروبولوجيا علم يدرس الإنسان بصفته كائن ثقافي، ويترتب عن هذا التعريف أن الثقافة موضوع للأنثروبولوجيا ذلك أن الإنسان كائن اجتماعي ينتج ثقافته و يكتسبها و يمارسها في أشكال مختلفة من عادات و تقاليد و طقوس دينية....

ولكن لما نتصفح كثيرا من الدراسات التي أنجزت حول ماهية الأنثروبولوجيا و نشأتها وتطورها و ميادينها نلاحظ أن ثمة توصيفات للأنثروبولوجيا يتطلب منا تصويبها حتى يتسنى للطالب المبتدئ والمتخصص في الأنثروبولوجيا معرفتها، وتمكينه من تتبع مساره العلمي في هذا الحقل المعرفي الإنساني و الاجتماعي.

وتتمثل هذه التوصيفات أولا: في أن الأنثروبولوجيا علم استعماري وثانيا: أن هذا العلم يدرس فقط المجتمعات البدائية والثقافات التقليدية ... هذا الخطاب الشائع تجاه الأنثروبولوجيا يصطدم بمجموعة من الاعتراضات منها أن كل العلوم الإنسانية و الاجتماعية قد استغلت لأغراض استعمارية وإيديولوجية في مراحل تاريخية معينة مرتبطة بموجة التوسعات الاستعمارية التي استهدفت مجتمعات قبلية في إفريقيا وأسيا وأمريكا.... و

انفصلت الأنثروبولوجيا في مراحل لاحقة عن التوظيف السياسي والإيديولوجي لهالتصبح علما إنسانيا واجتماعيا يتحدد بموضوعاته و مناهجه و مفاهيمه كباقي العلوم الإنسانية و العلوم

الاجتماعية الأخرى، وأما حصر الأنثروبولوجيا في دراسة البدائي والتقليدي ... تعبر عن رؤية قاصرة لأن الأنثروبولوجيا تتجدد وتتنوع موضوعاتها نتيجة التحولات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية التي تشهدها المجتمعات البشرية.

لقد صارت الأنثروبولوجيا تدرس المجتمعات الحديثة، وتتطرق لموضوعات مرتبطة بأنماط وأساليب حياة الناس الجديدة، كما تبحث في المؤسسات الصناعية والدينية والإعلامية والتربوية ... وبعبارة أدق - أينما كانت الثقافة وجدت الأنثروبولوجيا.

يعتبر الإنسان كائنا اجتماعيا ومدنيا بطبعه، وقد عبر عن ذلك كثير من الفلاسفة وعلماء الاجتماع وبخاصة الفيلسوف اليوناني أرسطو والفرابي والعلامة ابن خلدون وجون جاك روسو وماركس ودوركايهم هذا الإنسان يحتاج إلى أفراد يتعاون معهم لتلبية مختلف حاجاته المادية البيولوجية والاجتماعية والثقافية ... يقول محمد عابد الجابري : " هناك من جهة ما يمكن التعبير عنه ب " اجتماعية الإنسان فالإنسان مدني بالطبع لا يصح وجوده، ولا تستقيم أحواله إلا بالعيش مع غيره من بني جنسه. إن اجتماعية الإنسان تفرضها ضرورة التعاون من أجل تحصيل الغذاء الذي به قوام وجوده. "[1]

وميزة العقل التي انفرد بها عن باقي المخلوقات الأخرى هي التي جعلته يتجاوز حدود حاجاته الغريزية و البيولوجية، التي يشترك فيها مع الحيوان حيث يرقى بهذا العقل إلى إنتاج وإعادة إنتاج أنماط مختلفة أمن التفكير والسلوك والعادات والتقاليد والأعراف ... التي تمثل المبادئ و القواعد الثقافية و الاجتماعية، التي تضبط تصرفاته وأفعاله، وتحدد علاقته بأقرانه - وبعبارة أدق - إن الإنسان كائن إجتماعي وثقافي لا يمكنه العيش بدون مجتمع أو بدون ثقافة.

و هذا العقل قد مكن الإنسان من التميز بين الأشياء و أكسبه القدرة على ترتيبها فقد أشار دوركايهم و مارسيل موس إلى هذه الطاقة البشرية التي عملت على نمو وتطور الثقافة ف : " الثقافة تصبح ممكنة فقط عندما يتمكن الإنسان من التمييز بين الأشياء أو تصنيفها. و عند الولادة لا يستطيع الإنسان تصنيف الأشياء، بل هو يرى فقط تدفق مستمر للصور و هذا يجعل من الصعب

---

[1]محمد عابد الجابري ، فكر ابن خلدون ، العصبية والدولة . معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ط 8 ، 2008 ، ص 163

عليه فصل الأشياء عن بعضها. و لكي يطور الإنسان شكلا من الثقافة لا بد له أن يوجد نظاما لتصنيف الأشياء، و بدون ذلك سوف لن يعثر على معنى للعالم المحيط به. " [1]

1- تعريف الأنثروبولوجيا:

تتفق جل الأبحاث والدراسات التي اهتمت بالأنتروبولوجيا من حيث موضوعها وتاريخها و نظرياتها و مجالاتها وفروعها أنها من أصل لغوي لاتيني مستمد من لفظ يوناني أنتروبوس، الذي يعني نصفه الأول " أنتروبوس " الكائن البشري " و نصفه الثاني لوجوس الذي يتخذ معان عديدة منها : " علم " "معرفة " دراسة " و الترجمة العربية تستعمل صيغة " علم الإنسان " وفي المشرق الإسلامي يفضل ترجمتها ب " علم الأناسة " أما في المغرب الإسلامي فالاستعمال الشائع يتمثل في "الأنتروبولوجيا . " [2ii]

يركز التعريف اللغوي للأنتروبولوجيا على أنها علم يدرس الإنسان، ولكن هذا العلم الذي ينتمي في موضوعاته للعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية يهتم أساسا بدراسة الإنسان ككائن ثقافي أي كائن ينتج ثقافته ويمارسها في شكل عادادت وتقاليد وطقوس، وهذه الزاوية تجعل الباحث في الأنتروبولوجيا يحدد موضوعها بدقة تفاديا للتداخل واللبس الذي يقع بينها وبين العلوم الاجتماعية الأخرى وبخاصة علم الاجتماع ويتمثل هذا الموضوع في الثقافة فالأنتروبولوجيا : " لم تعد مجرد بحث نظري أو حتى بحث تطبيقي ، بل إنه صار علما إعلاميا وإعلانيا أيضا، فقد صار في وسع العالم اليوم أن يوثق علمه بالصوت والصورة، وصار بإمكانه لا أن يتحدث عن البدائي وحده موضوع هذا العلم، فكل أساليب الحياة وهموم الثقافة، جميعها أصبحت مواضيع عند الأنتروبولوجي. لقد صارت الثقافة، موضوع هذا العلم، وليست ثقافة واحدة كما نعلم، حتى ولو كانت اللاتينية المركزية الأوروبية هي التي مهدت

---

[1]- ها رلمبس وهولبورن ، سوسيولوجيا الثقافة والهوية ، تر: حاتم حميد محسن ، دار كيوان للطباعة والنشر والتوزيع ، دمشق ، ط1، 2010، ص17

[2]- الزهرة إبراهيم ، الأنتروبولوجيا والانتروبولوجيا الثقافية ، . وجوه الجسد ، المايا للدراسات والنشر والتوزيع ، دمشق ، 2009ص13

لولادة هذا العلم ومهما يكن من الأسباب، سواء أكانت استعمارية أو محض علمية أو فضولا معرفيا. "[1]

2 ميادين الأنثروبولوجيا :

تتميز الأنتروبولوجيا من الناحية الإبستمولوجية بتعقد موضوعها، حيث تتقاطع حوله مختلف العلوم الاجتماعية والإنسانية لذلك تعددت مجالاتها وميادينها منها الأنثروبولوجيا البيولوجية و الاجتماعية و السياسية و الثقافية و الاقتصادية ... و لغرض التوضيح سوف نحدد أهم هذه المجالات المعرفية التي تدرسها الأنثروبولوجيا.

أ- الأنثروبولوجيا البيولوجية:

يعد هذا المجال المعرفي أول موضوعات الأنتروبولوجيا من حيث البحث والدراسة حتى أنها ظلت لوقت طويل مهيمنة على الأنتروبولوجيا العامة، ويتميز هذا المجال أو الميدان بدراسة الإنسان بصفته كائن عضوي وأقامت دراسات وأبحاث مقارنة لمختلف الأنواع العرقية من حيث تنوعه المورفولوجي و الفزيقي و على هاذا الأساس ف : " الأنتروبولوجيا الفزيائية هي مجموعة التخصصات المعرفية التي تتناول أصل الإنسان كنوع حيواني .. إنها تحتم بالجانب الطبيعي بالأساس. و الأنتروبولوجيا الفيزيائية لا زالت قائمة كعلم في التخصصات العلمية سواء الأركيولوجيا أو في علم الجينات وغيرها. و اتخذت في جل الدراسات حاليا مصطلح الأنتروبولوجيا البيولوجية أكثر من الفيزيائية. "[2]

ب الأنثروبولوجيا الاجتماعية و الثقافية:

إذا كانت الأنثروبولوجيا البيولوجية أو الفيزيائية قد نمت و تطورت نتيجة التطورات العلمية، التي أحدثتها البيولوجيا وبخاصة مع الإنجازات العلمية التي توصل إليها العالم البيولوجي تشارلز داروين والتي دونها في كتابه الشهير " **أصل تطور الأنواع** " فإن مجالا آخر بدأ يتبلور في النصف الثاني من القرن التاسع عشر تمثل في الأنتروبولوجيا الإجتماعية أو الثقافية التي تجاوزت النظرة للإنسان بصفته

---

[1]- مارك ، أوجيه ، جان بول ، كولاين ، الأنتروبولوجيا ، تر جورج كتورة ، دار الكتاب الجديدة المتحدة ، فرنسا ، ط1، 2008ص6

[2]رحال بوبريك ، مدخل إلى الأنثروبولوجيا، دار رقراق للطباعة والنشر، المغرب، 2014، ص 10

كائن عضوي، حيث يتناول هذا الميدان الأنثروبولوجي الإنسان الاجتماعي و الثقافي و هو الكائن الذي يعيش في مجتمع وتتشكل شخصيته القاعدية في محيطه ويكتسب ثقافته عن طريق مؤسساته الاجتماعية و الثقافية و الدينية و السياسية .

تتناول إذن الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية الإنسان الذي يولد في مجتمع و يتربى فيه ويتلقى منه ثقافته بينما تركز الأنتروبولوجيا البيولوجية على الإنسان الطبيعي ذي التركيب العضوي الذي يتقاطع فيه مع التركيب العضوي للحيوان و هذا ما جعل كثير من الأنتروبولوجيين الوظيفيين منهم مالينوفسكي و رادكليف براون و تالكوت بارسونز ... يوظفون المقاربة البيولوجية في تفسير الثقافة.

و لعل مبدأ المشابهة بين الكائن الاجتماعي والثقافي و الكائن العضوي الذي يعتبر ركيزة التحليل الأنثروبولوجي الوظيفي - كما سنرى لاحقا - يؤكد الإسهام البيولوجي في الدراسات الأنثروبولوجية المعاصرة، ولكن في هذا الاتجاه يجب التنويه إلى أن الأنثروبولوجيا الاجتماعية و الثقافية في فرنسا اتخذت معنى مفهوم الإتنولوجيا وهي علم دراسة السلالات البشرية أو الإثنيات البشرية . [1]

3- الأنثروبولوجيا من التوظيف الإيديولوجي الإستعماري إلى التوجه العلمي :

لما نتأمل في الدراسات التي تؤرخ للأنتروبولوجيا، من حيث نشأتها وتطورها، والسياق التاريخي الذي تزامنت معه نكتشف أن مصطلح الأنتروبولوجيا لا يختلف في ظهوره عن العلوم الاجتماعية الأخرى، من حيث تأثره بالعلوم الطبيعية والتجريبة والرياضية التي سادت في نهاية القرن السادس عشر و عصر النهضة في السابع عشر وعصر الأنوار في القرن الثامن عشر، حيث إن هذه الفترات والحقبات التاريخية المتعاقبة قد أسهمت بقسط كبير في تشكل العلوم الاجتماعية وبخاصة علم الاجتماع والأنتروبولوجيا وتحديد موضوعاتها ومناهجها ومفاهيمها وطرائق البحث الخاصة بها في دراسة الظواهر الاجتماعية والثقافية والسياسية والاقتصادية والقانونية برؤية ومنهجية علمية تميزها عن علم الاقتصاد وعلوم السياسة والفلسفة وعلم التاريخ....

كانت الأنتروبولوجيا في بدايات تشكلها وبخاصة في عصر النهضة وعصر الأنوار لصيقة بالعلوم التجريبية وبخاصة بعلم وظائف الأعضاء والبيولوجيا وعلم التشريح ، وهي المرحلة التي أسست

---

[1]- الزهرة إبراهيم ، مرجع سابق ، ص 14

للأنتروبولوجيا البيولوجية التي انشغلت بدراسة الإنسان بصفته كائن عضوي بيولوجي لا يختلف في تركيبه العضوي الطبيعي عن الحيوان ثم تحولت إلى علم يبحث في الإنسان بكونه كالنا اجتماعيا يكتسب ثقافته عن طريق التنشئة الاجتماعية التي تتخذ شكلان أحدهما تنشئة اجتماعية مقصودة تتم في أطر رسمية أي في مؤسسات التنشئة الاجتماعية الرسمية منها المدرسة و الأسرة ... و أخرى غير مقصودة بمعنى غير رسمية تتم في الشارع و مع جماعة الرفاق .....

و للتدليل على الوظيفة الايديولوجية والسياسية للأنثروبولوجية فإننا نستشف كثيرا من الدراسات النقدية التي يمثلها نخبة من الباحثين المغاربة الذين استفادوا من الإرث الاثنوجرافي الكولونيالي و من معرفة دقيقة بخصوصيات مجتمعاتهم التاريخية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والسياسية. يقول المختار الهراس: " في خضم الأبحاث الاجتماعية التي أنجزت حول المجتمعات المغربية في الفترة الاستعمارية ستبرز المعالم والمواصفات الأولية لما سيعرف لاحقا ب " التحليل الانقسامي. وإذا كان هذا المعطى التاريخي يقتضي في نظر البعض إدراج الانقسامية وتصنيفها ضمن الكتابات والأطروحات الاستعمارية ، فإنه لا ينبغي من ناحية أخرى أن نتغافل عن كون التحليلات الانقسامية ما زالت حتى الوقت الراهن فاعلة وبارزة في العديد من الكتابات التي تتخذ من المغرب العربي موضوعا لها ، وإنها بالإضافة إلى ذلك أنت بنماذج نظرية وأدوات مفاهيمية متميزة نسبيا في إطار ما كان يطغى عموما على سوسيولوجية المرحلة الاستعمارية من نزعة اختبارية ضيقة وتركيز على تجميع المعطيات . وإذا كان هذا الحكم ينطبق بصفة خاصة على الصيغ المعاصرة للتحليل الانقسامي. فإن بداياته الأولى في المجتمع الجزائري تضمنت على الأقل الخطوط العريضة التي ستتخذ فيما بعد منطلقا نحو المزيد من التدقيق والتفصيل. "[1]

وفي نفس الاتجاه يقول فيليب لوكا وجون كلود فاتان عن بدايات الأبحاث الاتنوغرافية في الجزائر في المرحلة الكولونيالية : " إن الاكتشاف العلمي للجزائري هو إذن قبل كل شيئ متوقف على الاحتلال ، وقد شرع فيه حقا بواسطة العسكريين وتعاظم في الميدان وفق وتيرتهم ، بحيث يمكن أن نقتفي مع التفاوت الخفيف والضروري للتدوين والانطباع ، المراحل المتعاقبة للاستكشاف هذا ، خصصت السنوات العشر الأولى بالأحرى في للجزائر العاصمة والمدن المغزوة وضواحيها القريبة ، وكان تنظيم

---

[1]- المختار الهراس، التحليل الانقسامي للبنيات الاجتماعية في المغرب العربي: حصيلة نقدية، نحو علم اجتماع عربي. علم الاجتماع و المشكلات العربية الراهنة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط2، 1989 ، ص 265

المهزوم والنظام التركي موضوع دراسات وملاحظات ، إنطلاقا من الأرياف ، راحت الجيوش تشن الحرب للاستيلاء على قسنطينة ضد الأمير عبد القادر ، في حدود 1840 ، أصبح الداخل بعد ذلك يستأثر بالاهتمام وخاصة التل ، حينئذ اكتشف العساكر ما سوف لا ينفكون يبحثون عنه طوال سنين عديدة مجهول الفضاءات الجديدة و الريفيين و أهل المدن و البدو الرحل و مدن الداخل و الحواضر ذات الأهمية وكذلك الدواوير و الخيام والأكواخ و طرق عيش و وجوه جديدة لم تخطر بالبال، وقد أصبح التيتري، منطقة الجزائر الجبلية الميدان المفضل للمستكشفين أصحاب النياشين ، في ذات الوقت، أخذت أسرار القوى الدينية تنكشف. "[1]

و كان يؤطر تلك الدراسات والأبحاث التي أنجزت حول المجتمعات المغاربية الحاكم العام كامبون 1890 و كان مقره المركزي في الجزائر، حيث تشكلت لديه قناعة تامة تقوم على أن الغزو الكولونيالي يتم انطلاقا من معرفة دقيقة بثقافة المستعمرات الفرنسية في شمال افريقيا وخاصة في الجزائر و المغرب الأقصى و ذلك بإنجاز بحوث و دراسات اجتماعية حول عاداتها وتقاليدها وكلف الباحثين بكتابة تقارير حول ما تم اكتشافه و ملاحظته و تجميعه من معطيات ميدانية قابلة للتوظيف الايديولوجي و السياسي .. يقول عبد الصمد الديالمي : ".. كان كامبون من الدعاة إلى توظيف الدراسات الاجتماعية في الغزو الكولونيالي، وفي الإدارة الكولونيالية .. و من ثمة، يغدو من السهل إدراك دور الاستطلاع الاثنوغرافي في العملية الاستعمارية و موليبراس بصفته صاحب استطلاع من هذا النوع، كان رجلا محبا للعقل و العلم، ووطنيا يحلم بفتح المغرب العتيق المنغلق بتقديمه إلى فرنسا .. نجد دراسات من النوع نفسه عند باحث " جزائري " آخر، دوتي الذي قام بسلسلة من الاستطلاعات حول المغرب، البعض منها في كتابيه مراكش، و في القبيلة. كتابان كلاسيكيان في الاثنوغرافيا: جمع و وصف وتأويل لكل ما يتعلق بالحياة الاجتماعية من تغذية ولباس وأعراس، وطقوس فلاحية. لكن دوتي لا يكتفي بالاستطلاع الاتنوغرافي .. بل يصل به الأمر إلى كتابة تقرير سري .. موضوع ذلك التقرير الشخصيات و الجماعات المغربية التي يمكن لفرنسا أن تعتمد عليها من أجل الدخول إلى المغرب.

---

[1] فيليب لوكا وجون كلود فانان، جزائر الأنثروبولوجيين. نقد السوسيولوجيا الكولونيالية ، تر محمد يحياتن وآخرون، منشورات الذكرى الأربعين للاستقلال، الجزائر ، 2002، ص 9-10

في هذا الاطار، يذكر دوتي بعض القواد في الجنوب ، وبعض الجماعات الدينية ، علاوة على الجزائريين الساكنين في المغرب والفئات الاجتماعية المنحدرة من أصل جزائري. "[1]

وفي نفس الإتجاه يقول جيرار لكلرك " من هذه المنطلقات كانت أغراض العلم الجديد أغراضا بريئة للوهلة الأولى . أو إنما كانت أول الأمر. لكن هذه البراءة لم تدم طويلا إذ تحول هذا العلم وبسرعة إلى أداة في يد السلطة ، أو السلطات الحاكمة في البلدان الأوروبية التي كانت تشهد مع توسع البحث في الأنتروبولوجيا توسعا جغرافيا مذهلا حملها من حدودها الضيقة لتجد لها في كل جهة من جهات الأرض لا موطئ قدم وحسب، بل رقاعا جغرافية تفوق مساحتها الأصل بعدد من الأمثال. إنه العهد الاستعماري الكلاسيكي، عصر البحث عن مستعمرات عن أسواق وعن يد عاملة وعن مواد خام و عن زبائن جدد يشترون صناعات غير متوفرة في أرضهم والاستعمار هذا لم يكن عسكريا وحسب. إنه لا يدرس في كتب التاريخ و لا في حوليات الأمم والشعوب والدول. بل كان استعمارا كانت الثقافة بعض أسلحته . و ربما أحيانا السلاح الأمضى.[2]

و لكن يبدو أن هذا الموقف الذي هيمن و لوقت طويل و الذي أتخذ عند كثير من الباحثين في مجال الأنتروبولوجيا نقطة البدأ ولحظة التأسيس لهذا العلم لم يفصلوا بين التوظيف الايديولوجي و السياسي للأبحاث الأنثروبولوجية وممارسته للهيمنة على الشعوب المستعمرة و الممارسة أو - على الأقل - المساهمة العلمية لهذه الأبحاث لأغراض علمية ، حيث إن الأنتروبولوجيا لم تكن في ماهيتها علما استعماريا بامتياز ذلك أن كثيرا من الباحثين كانوا يدركون تماما أن انخراطهم في المشروع الاستعماري يعد انحرافا خطيرا عن أهداف هذا العلم الذي كان يسعى لمعرفة ثقافات و مجتمعات بعيدة جغرافيا و متنوعة ثقافيا : "لقد عبر بعضهم عن وقوعهم ضحية هذا العلم إذ ارتضوا، أو أجبروا على العمل لا في حقل الأبحاث الخاص بهم وحسب، أي في الاطار النظري لعلمهم، بل في حقل إدارة، أي في اطار وضع خبراتهم ومعلوماتهم في خدمة النظام الإداري، الذي أنيط به تنظيم حياة الشعوب المستعمرة ...

هكذا تحالف كل من المبشر والإداري والضابط العسكري للقيام بعمل شبه مقدس برأيهم. وإلى أن

---

[1] عبد الصمد الديالمي ، ملامح تطور السوسيولوجيا في المغرب، نحو علم اجتماع عربي علم الاجتماع والمشكلات العربية الراهنة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط2، 1989 ، ص 291

[2] 2 جيرار لكلرك ، الانتروبولوجيا والاستعمار ، تر : جورج كتورة ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط2، 1990 ص6

تسنى للعالم وعي المأزق الذي دخله، أو وعي الحالة الإنسانية التي ألزم على العمل في إطارها ، كانت الإدارة العسكرية غالب الأحيان قد سارعت لتنظيم كل ما يلزم تنظيمه ولم يبق للعالم الأنتروبولوجي إلا أصقاع مجهولة يفتش عبرها عن شعوب ما زالت تعيش خارج التاريخ فيرضى بدراستها ضميره ويشبع هوايته . "[1]

خلاصة:

تعتبر الأنثروبولوجيا علما من العلوم الاجتماعية و العلوم الإنسانية التي اهتمت بدراسة الإنسان و ما أنتجه من خيرات مادية ومعنوية عبر التاريخ و تعددت ميادينها و مجالاتها الثقافية و الاجتماعية و البيولوجية و الحضارية .. فكانت علما مفيدا أسهم في الكشف عن أسلوب حياة المجتمعات القديمة و الحديثة.

و الأنتروبولوجيا ليست بعلم يهتم فقط بدراسة المجتمعات التي سميت " بدائية" بل إنها علم يدرس أيضا المجتمعات الحديثة وكل ما أنتجه الإنسان القديم و ينتجه الإنسان المعاصر من أنماط و ممارسات ثقافية جديدة نتيجة التحولات الكبيرة التي تعرفها المجتمعات في المرحلة الراهنة التي يطلق عليها مرحلة مجتمع المعرفة.

[1] المرجع السابق، ص 7-8

نماذج من النظريات الأنتروبولوجية

تمهيد:

تتعدد النظريات الأنتروبولوجية وذلك يرتد إلى تعدد موضوعاتها وما نلاحظه تداخل كثير من العلوم الاجتماعية والإنسانية مع الأنتروبولوجيا منها علم الاجتماع وعلم النفس وعلم الإقتصاد وعلم السياسة وعلم التاريخ ... ومن بين أهم النظريات الأنتروبولوجية التي تشكل نماذج معرفية المقاربة الظواهر الثقافية والاجتماعية ما يلي:

1- النظرية التطورية:

تعتبر هذه النظرية من بين أبرز النظريات التي تشكلت عبر مراحل تاريخية متعاقبة وتبلورت تحديدا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بتأثير من الثورات والإنجازات العلمية الكبيرة التي تحققت في علم البيولوجيا والعلوم الطبيعية حيث تأثر علماء الاجتماع والانتروبولوجيا بكتابات تشارلز دارون حول أصل تطور الأنواع وهو كتابه الأساس الذي يشرح فيه مبدا التطور في السلالة الحيوانية والبشرية على أساس التطور في مستوى الفصيلة . يقول رحال بوبريك " تعتبر المدرسة التطورية وليدة سياق القرن التاسع عشر ، فلسفيا وعلميا وإيديولوجيا. فالنظرية التطورية التي بدأت مع عصر الأنوار والثورات العلمية ستفرض نفسها في القرن التاسع عشر أمام التقدم السريع الذي عرفه الغرب والمسافة التي أصبحت تفصله عن المجتمعات الأخرى . ظهرت التطورية في البداية في حقل العلوم البيولوجية من خلال نظرية جان باتيست دولا مارك 1744-1828 وبعده داروين. ففي القرن التاسع عشر كانت نظرية أصول تطور الأنواع هي المهيمنة على الحقل الفلسفي والعلمي والفكري. [1]

هذا الإنجاز العلمي الكبير استمده هاربرت سبنسر الذي ذهب إلى القول بأن المجتمع شبيه بالبذرة التي تنمو وتتطور ثم تندثر كما تقوم نظريته في التطور على مبدأين هما : مبدأ التباين ومبدأ التكامل ويعني مبدا التباين ان الكائن العضوي تختلف أعضاؤه فتختلف وظائفه ، ويقصد بالتكامل هو ان

[1] رحال بوبريك، مدخل إلى الأنثروبولوجيا، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، المغرب، 2014، ص 46

هذا التباين غرضه تحديد دور كل عضو ذاخل النظام الاجتماعي وبعبارة أدق فإن أعضاء الكائن العضوي متباينة ومتكاملة للحفاظ على تكيف هذا الكائن واستقراره .

انتقل مبدا التطور من مجال من مجال علم الاجتماع إلى مجال الأنتروبولوجيا حيث يمثل النظرية التطورية في الأنتروبولوجيا كثير من العلماء منهم : جوهان بالخوفين الذي تمحورت أبحاثه حول سلطة الأم التي يؤكد عليها في كتابه " حق الأم " وماكلينان صاحب كتاب " الزواج البدائي " وهنري مين ، ولويس مورغان في مؤلفه الكبير " المجتمع القديم "1877... كان هؤلاء الأنتروبولوجيون التطوريون يشتركون في ميدان اهتمام معرفي وأنتروبولوجي واحد يتمحور حول نظام العائلة والقرابة ومؤسسة الزواج وإدوارد تلور صاحب كتاب " الثقافة البدائية " 1871 وجيمس فريزر مؤلف كتاب : " الغصن الذهبي " الذي أنجز في عدة أجزاء من 1890 حتى 1915 ، وقد اهتما في أبحاثهما الأنتروبولوجية بالدين والسحر بصفة خاصة .

تقوم النظرية التطورية على مجموعة من الأسس منها :

- تفسير الظواهر الاجتماعية والثقافية وربطها بسياقاتها التاريخية حيث تعطي أهمية كبيرة للتاريخ وفي هذه النقطة تلتقي مع النظرية الماركسية.

- التأكيد على تطور النظم الاجتماعية والثقافية والسياسية وانتقالها من حالة إلى حالة أخرى ومن شكل الآخر.

- تقوم على مفهومي التباين والتكامل و يتجلى ذلك عند هاربرت سبنسر.

- تعتقد أن الثقافات البشرية متشابهة وانها تسير في شكل مستقيمات متوازية حتى انها سميت بنظرية المستقيمات المتوازية ولكن كل مستقيم يفوق مستقيم آخر أي أن هناك ثقافة متطورة على ثقافة أخرى و هناك ثقافة تتميز بالسرعة في التقدم و هناك ثقافة بطيئة وان هناك عقل واحد تحكمه قوانين واحدة و تفكير واحد مما يجعل الثقافات تسير في إتجاه واحد لهذا كانت متشابهة . فالتشاه إذن في الثقافات هو تشابه في قوانين العقل.

2- النظرية الانتشارية :

يقصد بالانتشار الثقافي عملية انتقال نماذج ثقافية من مساحة جغرافية إلة مساحة أخرى عن طريق الاتصال بين الأفراد والجماعات ، و الهجرة من مكان إلى آخر ، أو التجارة ... و تضم هذه النظرية عدة اتجاهات حيث تفترض أن مبدأ الانتشار قد بدأ من مركز حضاري معين وامتد في مراحل تاريخية متعاقبة إلى مناطق مختلفة من العالم وذلك نتيجة الاتصال بين الشعوب، و تذهب النظرية الانتشارية في بريطانيا إلى القول بأن الحضارة الإنسانية ترتد إلى مركز واحد و من ثمة انتقلت عن طريق الهجرة والحروب و التبادل التجاري إلى الشعوب والمجتمعات و يمثل هذا الاتجاه العالم البريطاني إليوت سميث 1871 - 1937 وتلامذته حيث يعتقدون أن الحضارة الإنسانية نشأت وازدهرت على ضفاف نهر النيل في مصر القديمة منذ حوالي خمسة آلاف سنة قبل الميلاد تقريبا وذلك بعد فترة طويلة عاشتها الإنسانية على الصيد .[1]

لكن بعض الأنتروبولوجيين في ألمانيا والنمسا رفضوا هذا المبدأ القائم على مركزية منشأ الحضارة الإنسانية من بينهم ولهيم شميدت 1868-1959 الذي يعتقد أن الانتشار الثاني قد تم من مراكز متعددة من العالم ، وهذا ما يفسر تعدد الثقافات ونماذج السلوك البشري.

وفي الولايات التحدة الأمريكية يفند العالم الأنتروبولوجي فرانز بواز مركزية الانتشار الثقافي وتشكل الحضارة البشرية من مصدر واحد حيث يتصور أن كل ثقافة نمت في سياق تاريخي معين، وقد وظف مفهوم المناطق الثقافية ليفسر الخصوصيات الثقافية للمجتمعات البشرية وذلك أن لكل ثقافة في منطقة ما من العالم لها ميزاتها و خصوصياتها . هذا التفسير الأنتروبولوجي عند فرانز بواز بصفة خاصة قد فند مزاعم التطوريين الذين اعتقدوا أن الثقافات متشابهة : " و نتج عن هذا الاتجاه الانتشاري بصفة عامة أن بدأ الأنتروبولوجيون ينظرون إلى الثقافات الإنسانية باعتبارها كيانات مستقلة من حيث المنشأ والتطور والملامح الرئيسية التي تميزها عن غيرها، وذلك على عكس التطوريين الذين رأوا أن

[1] عبد الغني عماد سوسيولوجيا الثقافة ، المفاهيم والإشكاليات .... من الحداثة إلى العولمة ، مركز دراسات الوحدة العربية 25بيرو، ط2، 2008، ص 50

الثقافات متشابهة، و أن الاختلاف الوحيد بينها يكمن فقط في درجة تطورها التكنولوجي و الاقتصادي . " [1]

يبين هذا النص أن النظرية الانتشارية قد فندت التصور الأنتروبولوجي التطوري ، وطرحت مسألة جديدة في الفكر الأنتروبولوجي المعاصر مع المدرسة الانتشارية وبخاصة مع فرانز بواز متمثلة في أن لكل مجتمع خصوصياته الثقافية والاجتماعية والدينية ... فليست هناك ثقافة واحدة بل ثقافات متعددة وإلى جانب مبدأ الخصوصية الثقافية للمجتمعات فقد أضافت شيئا جديدا يتمثل في النسبية الثقافية .

ويؤكد فرانز بواز الذي يعتبر أب الأنتروبولوجية الأمريكية على الخصوصية والنسبية الثقافية بفعل الأبحاث الميدانية العديدة التي قام بها على قبائل عديدة أشهرها تلك التي أنجزها حول قبائل الإسكيمو . [2]

3- النظرية الوظيفية:

ظهرت الوظيفية كرد فعل على النظرية التطورية، وتقوم على مفاهيم أساسية منها النسق والوظيفة والحاجات والتكيف والتوازن .... ويعتقد إفانز بريتشارد أن الأنتروبولوجيا تشكلت كعلم قائم بذاته مع التحقيقات الميدانية التي أنجزها العلماء الوظيفيون وهي الميزة التي تنفرد بها الوظيفية والتي لا نعثر عليها عند التطوريين الذين اكتفوا فقط يجمع المعطيات من المبشرين والمغامرين والتجار العائدين من تلك المجتمعات التي كانت تطلق عليها تسمية " مجتمعات بدائية "

و تظهر جذور الفكر الوظيفي في كتابات ماكس فيبر ودوركايهم في كتابه " التقسيم الاجتماعي للعمل " حين يتحدث عن التضامن الآلي والتضامن العضوي وخصائص كل منهما ، لكن الوظيفيية تشهد تطورا كبيرا في بداية القرن العشرين وبخاصة مع رادكليف براون ومالينوفسكي الذي يؤسس للأنتروبولوجيا الوظيفية من خلال أبحاثه الميدانية التي أنجزها في مناطق جغرافية عديدة منها دراساته بغينيا الجديدة وشعوب جزر التروبرياند سنة 1922 وينفرد مالينوفسكي عن باقي الأنتروبولوجيين باستعماله للملاحظة بالمشاركة التي تتطلب من الباحث أن يمارس نفس الطقوس والعادات والتقاليد ... للأفراد والجماعات

---

[1]- المرجع نفسه، ص 51

[2]- محمد رياض، الإنسان دراسة في النوع و الحضارة، دار النهضة العربية، بيروت، ط2، 1974، ص 299

التي يقوم بدراستها، كما أكد على ضرورة فصل الظاهرة المدروسة عن تاريخها الذي نشأت و تطورت فيه حيث يرى : " أنه يجب الاقتصار على الملاحظة المباشرة للثقافات في وضعها القائم. من دون محاولة العودة إلى أصولها، إذ إن ذلك يمثل تمشيا واهما لأنه لا يحتمل إقامة الحجة العلمية عليه. " [1]

- أسس النظرية الوظيفية :

ترتكز النظرية الوظيفية على مجموعة من الركائز التي نلاحظ من خلالها تأثير البيولوجيا و علم وظائف الأعضاء على طريقة مقارباتها الأنثروبولوجية للظواهر الاجتماعية والثقافية و السياسية وكذلك نتيجة تأثير التكوين العلمي القاعدي للأنتروبولوجيين الوظيفيين حيث يلاحظ أن أغلبهم من البيولوجيين أو العلوم الطبيعية و هي الميزة التي نجدها عند الانتروبولوجيين البريطانيين والأمريكيين :

استبعاد الدراسة التاريخية للظواهر الثقافية و الاجتماعية.

- مبدأ المشابهة والمماثلة من حيث الوظائف بين الكائن الاجتماعي والكائن العضوي.

- مبدأ التوازن والحفاظ على النسق الإجتماعي من خلال تلبية الحاجات المادية و المعنوية وهي جملة الوظائف التي تقوم بها النظم الإجتماعية لإشباع هذه الحاجات المختلفة .

- الإقرار بظاهرة الاعتلال الوظيفي داخل النسق و استبعاد فكرة الصراع.

4 مدرسة التحليل النفسي:

كان التحليل النفسي في بدايات نشوئه علما طبيا يعالج الأمراض النفسية والعصابية ثم تحول إلى دراسة تطور البشرية، واهتم بالثقافة ومكونات الشخصية القاعدية للإنسان.

يرى فرويد أن سير العمليات اللاشعورية يحدد خاصية نشوء المعايير الأخلاقية للسلوك البشري والروابط الاجتماعية والمؤسسات التي تدل على تقدم البشرية بدءا من الجماعات الأولية البدائية وانتهاء بالتنظيم

[1] دنيس ، كوش ، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية ، تر: منير السعيداني ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ط1 ، 2007، ص58

المعاصر للمجتمع الرأسمالي، لقد بحث في تاريخ تطور المجتمع البدائي وتوصل إلى فرضية مفادها أن الدين والأخلاق والمشاعر الاجتماعية تشكلت على أساس عقدة أوديب أي عن طريق كبت هذه العقدة.[1]

عاش الإنسان في بداية نشوئه في أسرة بدائية وكانت السلطة الاجتماعية بيد أب يمتلك النساء فكان الأبناء يخضعون لسلطته وإرادته. ولما كان الأبناء في كل مرة يطالبون حقهم في التمتع بالنساء كان الأب يطردهم من الأسرة البدائية، ويدافع بقوة عن حقه في احتكار النساء وامتلاكهن إلا أن هذه السلطة الأبوية لم تستمر طويلا إذ اتحد الأبناء المطرودين وقتلوا الأب وأكلوه واضعين بذلك نهاية للأسرة البدائية.

وعلى الرغم من التصور الأنتروبولوجي والتاريخي الذي يؤسس عليه فرويد أطروحته حول التحليل النفسي في تحليل البنية الشخصية للفرد ودوره في تشكيل ثقافته بمختلف مكوناتها الدينية والاجتماعية والسلوكية ... على فرضيات مستمدة من أسطورة عقدة أوديب إلا أن ذلك لا يمنعنا من القول بان فرويد قد ساهم في تأسيس أنتروبولوجيا تشرح لنا نشاة الثقافة وطبيعتها في المجتمع البدائي والمجتمع المعاصر ، ويمكن عرض نص يلخص لنا الفكر الأنتروبولوجي عند سيغمند فرويد حيث يقول بول فاليري: " إن الصورة الخيالية التي رسمها فرويد للمجتمع البدائي على أساس استخدام جميع هذه الفرضيات ، قد بدت على الشكل التالي : " كان الإنسان في بداية نشوئه، يعيش ضمن أسرة بدائية يلعب الأب فيها الدور الرئيسي . وكان جميع الأبناء يخضعون لقوته وإرادته . وكان هو، وحده صاحب الحصة في امتلاك النساء. وعندما يكبر الأبناء، ويحاولون المطالبة بحقوقهم كان الأب يطردهم من الأسرة البدائية. وكان يدافع بفضل قوته الجسدية عن حقه باحتكار النساء ويقضي بأعمال حازمة على احتمال نشوء مواقف النزاع التي قد تنشأ بسبب امتلاك النساء . غير أن هذا الوضع لم يكن له أن يبقى خالدا . فقد اتحد الأبناء المطرودون فيما بينهم ، وقتلوا الأب وأكلوه ، واضعين بذلك نهاية للأسرة البدائية ، إلا أن الأبناء كانوا خاضعين لتأثير المشاعر الازدواجية، التي تظهر اليوم أيضا لدى الأطفال والعصابيين. فقد كانوا يكرهون أباهم ويمجدونه في آن واحد. وبقتلهم أبيهم لبوا عاطفة الكراهية، وخضعوا لسلطة مشاعر القربى الرؤوفة الحنونة التي نشأ على أساسها الشعور بالذنب والندم. ودفعهم هذا إلى تخليد صورة أبيهم إلى الأبد، على شكل طوطم معلنين تحريم قتل نائب الأب ... و هكذا نشأت المحرمات

[1] إبراهيم ، الحيدري ، النظام الأبوي وإشكالية الجنس عند العرب، دار الساقي ، بيروت ، ط1، 2003، ص 209

لقد بدأت الحضارة البشرية، حسب رأي فرويد بهذا الحدث العظيم، الذي الرئيسية للطوطمية يذكر الإنسان دائما بجريمة أجداده. " [1]

غير أن الأبناء كانوا خاضعين لتأثير المشاعر الازدواجية فهم يكرهون أباهم ويمجدونه في آن واحد وتصفيتهم الجسدية لأبيهم لبوا عاطفة الكراهية وخضعوا لسلطة القيم الأخلاقية التي نشأت على أساسها الشعور بالذنب والندم، ودفعهم هذا إلى تخليد أبيهم إلى الأبد على شكل طوطم معلنين تحريم قتل نائب الأب.

إن الشعور بالذنب قد دفع بالأبناء إلى التخلي عن رغباتهم في النساء و فرض تحريم الزنى وهكذا نشأت المحرمات "TABOUS" الطوطمية يقول فرويد يستقر المجتمع الآن على المشاركة في الجريمة المرتكبة بصورة جماعية، أما الدين فيقوم على الشعور بالذنب و الندم و تقوم الأخلاق على حاجات هذا المجتمع من ناحية وعلى الندم الذي يقتضيه الشعور بالذنب من ناحية ثانية [2]

[1] [1]فاليري ليبين ، المرجع السابق ،ص54
[2]المرجع السابق ،ص57